

صديقي اللواء الركن خليل كنعان

بقلم

العميد الركن نزار عبد القادر

ماذا أكتب عن صديقي اللواء الركن خليل كنعان، في وقت لم يندمل فيه الجرح الذي خلفه إغتياله ليل 29 ايلول 1986؟ كان خليل أكثر من رفيق وصديق بالنسبة لي، كان الجميع في المؤسسة العسكرية ينظر إلينا كتوأم، سواء من خلال الروابط الشخصية التي كانت قد نشأت بيننا منذ الأيام الأولى لدخولنا المدرسة الحربية في خريف عام 1957، أو من خلال علاقات المحبة والودّ التي نمت بيننا خلال ثلاثين سنة في الخدمة العسكرية. كان خليل بمثابة شقيق توأم حيث جمعنا وحدة الرؤية حول مختلف القضايا الوطنية، وحول ضرورة قيام دولة عادلة وقوية، وحول ضرورة صون الجيش القوي والقادر على تحقيق السيادة وحماية الناس وممتلكاتهم. كان خليل كنعان منذ الأيام الأولى لإنخراطه في الجيش مؤمناً برسالة الجندية وبالodor الوطني للجيش، وأيضاً بضرورة الإرتقاء به فوق كل خطوط الإنقسامات الحزبية والطائفية.

أتساءل من أين أبدأ بالكتابة عن اللواء خليل كنعان؟

هل أبدأ بالحديث عن البعد الأنساني الذي إكتنزه في شخصه، وبالتالي تعداد القيم السامية والخصال الحميدة التي طبعت سلوكيته العسكرية و سلوكيته العامة؟

هل أكتب عن الفارس خليل كنعان، وهو الذي أتقن فنون الفروسية في أبرز ميادينها اللبنانية والعربية والدولية؟ ولم تقتصر فروسيته على ترويض الجياد والمشاركة في المباريات، بل تجاوزت ذلك لتطبع حياته و سلوكيته مع الآخرين بطابع من النبيل والكرم والإقدام والشجاعة المادية والمعنوية، دون التخلي عن دماثة الخلق ولياقة التعبير والتواضع. هل أكتب عن الضابط والقائد خليل كنعان، وهو الذي شكّلت حياته العسكرية و سلوكيته المهنية نموذجاً مميزاً يصلح لأن يقتدي به الآخرون، ولأجيال عديدة مقبلة؟

إلتزم خليل منذ تخرّجه من المدرسة الحربية عام 1960 بالقسم الذي أدّاه أمام الرئيس فؤاد شهاب محاطاً بأركان الدولة وبالقيادة العسكرية، ولم يتراجع عن إلتزامه بالمهمة الوطنية وبالقيم العسكرية والانضباط العسكري حتى اليوم الأخير من حياته. كان يرغب أن يكون القدوة لمرؤوسيه ولزملائه في كل نشاط عسكري أو رياضي أو ثقافي أو تدريبي. ونجح دائماً من خلال نشاطه وقدرته على العطاء والتحمل وحبّه للمنافسة العادلة في أن يكون في طليعة ركب المجلّين. ولا بد لي من أن أؤكد هنا بأن حبّه للمنافسة لم يكن بدافع حب الظهور أو التحدي لمشاعر الآخرين، بل كان يأتي بالسليقة، والتي تؤشر الى حبّه للعطاء وزيادة الإنتاج، كمّاً ونوعاً. لقد وجدت نفسي في وضع التنافس معه في مباريات أو تمرينات رياضية أو في نشاطات تدريبية أو في دورات دراسية، ولكنني لم أشعر ولو لمرة واحدة بأنه كان يسعى للتفوق علي، بل كنت أراه سعيداً بمشاركتي له في الأداء المميز الذي كان يريد أن يعممه على جميع زملائه ومرؤوسيه.

كان خليل زميلي وصديقي الأقرب خلال ما يزيد على ثلاثة عقود، ولم تنقطع علاقاتنا وتواصلنا خلال هذه الفترة الطويلة بالرغم من كل التطورات الدراماتيكية التي حصلت في البلاد، وخصوصاً خلال الفترات التي احتدمت فيها الحرب، بما تسبب بعزل شبه تام بين مختلف المناطق اللبنانية. هناك الكثير الكثير من الذكريات والقصص التي أحب أن أرويها والتي تشكل محطات ومعالم منيرة في حياة كل منا. كان خليل يشدني دائماً لكي أصبح واحداً من افراد العائلة، ولذلك لم يترك فرصة سانحة إلا ودعاني فيها للذهاب معه إلى منزل العائلة. لا يمكنني أن أنسى دعواته المتكررة، حتى في ساعات متأخرة من الليل، لمرافقتي للعشاء في ضيافته والدته، تلك السيدة الجميلة المليئة بمشاعر المحبة والطف. وكانت المرحومة إم خليل تحب مداعبتي بالسؤال: "مين أزعر أكثر، إنت أو خليل؟" وكنت أجيبها دائماً: "أنا"، فكانت تضحك وتقول: "مثل بعضكم."

كان خليل ضابطاً متميزاً الإداء في كل الوظائف التي شغلها وعلى مدى حياته العسكرية، ولقد عملنا معاً في بعض المهمات الأمنية الصعبة والدقيقة. وإني اذكر ادائه العسكري المتميز عندما كان مسؤولاً عن أمن المحكمة العسكرية الخاصة بمحاكمة القوميين السوريين عام 1962 والتي كانت تتعقد في قصر الأونيسكو. وكان اداء خليل في تلك المهمة، التي إستغرقت فترة

طويلة، دقيقاً وحازماً دون التخلي عن فروسيته التي كانت تقضي دائماً بالتواضع وبتحترام السجناء وجميع المحامين وكتبة المحكمة والجمهور الذي كان يرغب في حضور تلك المحاكمات التاريخية. لفت اداءه الرفيع المستوى نظر رئاسة المحكمة حيث عمد رئيسها المرحوم الزعيم جميل الحسامي في بداية احدى الجلسات الى الإشادة بعمل الملازم كنعان الذي اُتسم دائماً بالجدية والحزم والدقة والإحترام.

لم يقتصر اداء خليل محط زملائه بل كان أيضاً موضع تقدير رؤسائه والقيادة العسكرية التي وجدت فيه القائد الميداني الفاعل، كما وجدت فيه المدرب الكفوء لتدريب دورات عديدة في المدرسة الحربية. وقد أكسبته السنوات التي قضاها كمدرّب في المدرسة الحربية محبة وإحترام جميع زملائه وتلامذته، وعمل في مراحل لاحقة كرئيس وزميل مع العديد منهم.

لا يمكنني إلا أن أنوّه بقدرات خليل القيادية في اثناء توليه لقيادة فوج المشاة الثاني القادم من ثكنة طرابلس للانتشار في محيط البرزة وحول وزارة الدفاع في اثناء فترة حرب السنتين. صمد جنود خليل مع قائدهم في تأدية المهمة التي انتدبوا إليها وكان أكثرهم من المسلمين القادمين من الشمال. كانوا مصرّين على التماسك في مهمتهم والإلتفاف حول قائدهم، متحدين كل التحرشات والاعتداءات التي كان يقوم بها بعض اعضاء الميليشيات والاحزاب المحلية. كنت أذهب مع العميد نبيل قريطم لزيارته في موقعه خارج أسوار وزارة الدفاع، وكنا نراه ونسمعه وهو يتحدث الى عسكريه حول رؤيته السياسية للبنان الدولة العادلة بين ابنائها. كما سمعناه يشرح لهم أهمية دورهم المتمسك بقديسية المهمة التي يضطلعون بها. لقد صمد خليل كنعان والفوج الثاني باكثرية الاسلامية في اداءهم لمهمتهم العسكرية حتى شهر أيار 1976، حيث غادر ابناء الشمال محيط وزارة الدفاع متوجهين الى منطقتهم عن طريق الكحالة، بعد ان كانت قد سُدت بوجههم جميع الطرقات. وكان الفوج الثاني آخر قطعات الجيش صمدت في تأدية مهامها في اطار الجيش الوطني الموحد.

ولا يمكنني ان أنسى تلك الوقفة الشجاعة التي وقفها خليل الى جانبي لحماية ملازمين وثلاثة جنود من إعتداء بعض العسكريين المتطرفين داخل حرم وزارة الدفاع في البرزة. في الصباح الباكر، رنّ جرس الهاتف في مكنتي في مديرية المخابرات، وكان المتكلم الملازم عباس نصرالله الذي اخبرني بانه قد بات ليلته في مكتب العميد منير السردوك في الطابق الارضي من مبنى قيادة الجيش وبرفقته الملازم علي جانبيه وثلاثة عسكريين، وقد أفاقوا على صوت الرصاص الذي يطلقه بعض الافراد المتهورين والذي يخترق الجدران الخشبية الى داخل المكاتب. اعطيته تعليمات بالتندرو وراء المكاتب ووعده بمعالجة الوضع.

أخبرت مدير المخابرات جول البستاني بالحادثة، كما علم بها بعض ضباط المديرية. شعرت بخطورة الخطوة التي أنا بصدد الإقدام عليها، فإتصلت بصديقي الرائد كنعان ليكون على بينة من العمل الذي قررت القيام به، والذي يقضي بالتصدي لهذا الإنحراف المهني والأخلاقي. أخذت بندقيتي ومسدس وتسللت الى مدخل ذلك الجناح، وتمركزت وراء احد الفواصل وناديت على أحد الضباط المذكورين الذي إعتبرته المحرّض الأساسي على هذا العمل الجبان والمشين. بعد ثوان معدودة تفاجأت بحضور خليل وتمركزه الى جانبي وفي يده بندقية "قال" وعلى وسطه مسدسه. سألته لماذا حضرت؟ قال لي: أنا معك ضد هؤلاء المتهورين.

إتخذ خليل هذا الموقف الشجاع على خلفية إيمانه بوحدة الجيش، وإنطلاقاً من إيمانه بالقيم العسكرية وبأخوة السلاح التي بدونها لا يمكن بناء جيش أو وطن. كان الشاهد الأبرز على ما جرى العميد ميشال ابو رزق، الذي حضر الى المكان ودخل كمفاوض لإنهاء تلك المواجهة الخطرة، حيث سحب الملازمين والعسكريين المحاصرين مع سلاحهم وتبرع بمرافقتهم وإيصالهم الى منطقة المتحف للإلتحاق بمنطقة بيروت. وعلمت لاحقاً مقدار الأثمان الغالية التي أجبر خليل على دفعها، والضغوط التي تعرّض لها هو وعائلته بسبب هذا الموقف الوطني الشجاع والنبيل الذي وقف فيه الى جانبي، والذي يتم عن مدى نضوجه العسكري والوطني، وعن قناعاته الثابتة بدور الجيش الموحد في الحفاظ على لبنان والدولة... يتبع...

العميد الركن نزار عبد القادر

في 21 نيسان 2010